ندرة الموارد وعلاقتها بالبيئة من وجهة نظر إسلاميّة

The Issue of Scarcity of Resources and Its Relationship to the Environment

Isu Kekurangan Sumber Dan Korelasinya Kepada Alam Sekitar Satu Analisis Dari Perspektif Islam

حسن بن إبراهيم الهنداوي*

الملخّص

إنّ الفقر والإملاق من المشكلات الرئيسة التي يواجهها العالم اليوم، ومن أسبابها ندرة الموارد الاقتصادية الشديدة وندرة الغذاء والماء. فندرة الموارد وقلتها كانت ذات أثر مباشر في قتل الملايين من الأنفس البشريّة. وتعدّ ندرة الموارد عند الاقتصاديين الخطر الأساس الذي يهدد الوجود البشري في هذا العصر. ويعتبرها الاقتصاديّون كذلك معضلة اقتصادية ناتجة عن رغبات الإنسان غير المتناهية مقابل موارد محدودة ومتناهية. ومن الأمور التي يقترحها الاقتصاديون من اجل التغلب على هذه المشكلة أن النّاسن ينبغي عليهم أن يختاروا الموارد الضرورية والحاجية لتلبية رغباتهم. فمفهوم الندرة من منظور الاقتصاد التقليدي يعني موارد محدودة في العالم مقابل حاجات ورغبات غير محدودة. وسبب ذلك عند الاقتصاديين أن الطبيعة لا توفر موارد كافية لتلبية حاجات الناس ورغباتهم غير المتناهية. ونظرة الإسلام التي يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لمسألة الندرة نظرة مختلفة تماما عن نظرة الاقتصاد التقليدي. ويعنى هذا البحث ببيان أن الندرة ليست مشكلة الطبيعة التس سخّرها الله تعالى للإنسان، ولكن المشكلة في أخلاقيات الناس وتصرفاتهم في الموارد الطبيعية وطريقتهم في الانتفاع بها التي أدت إلى إدخال الضرر والفساد على الموارد الموجودة.

* أستاذ مشارك بقسم الفقه وأصوله، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، ندرة الموارد، الاقتصاد المعاصر، الموارد الطبيعية، الطبيعة.

Abstract

Among the main problems that the world is facing today are poverty and destitution caused by severe scarcity of economic resources and the scarcity of food and water. The lack of resources has already caused the death of millions of human beings. The scarcity of resources is counted by economists as the primary danger that threatens the human existence. Economists also consider it an economic dilemma caused by infinite human desires against limited and finite resources. In order to overcome this problem among the suggestions made by economists is that human beings should choose only necessary resources to satisfy their desires. The conventional concept of scarcity is that the resources in the world are limited vis-à-vis the unlimited human needs and desires. The reason for that according to economists is that the nature does not provide sufficient resources to meet people's endless needs and desires. Islamic approach as represented by the Holy Qur'an and the Sunnah to the issue of scarcity is essentially different from the conventional viewpoint of economists. This paper proposes and explains that the problem is not in the nature which Allah has made subservient to man, but it is in the ethics of the people and their behaviour and way of utilization of natural resources, which ultimately damage and corrupt the available resources.

Keywords: Islam, Scarcity of Resources, Modern Economy, Environmental Resources, Nature.

Abstrak

Antara masalah-masalah utama yang sedang dihadapi dunia pada masa kini adalah kemiskinan dan kemelaratan disebabkan oleh kekurangan teruk sumber ekonomi dan kekurangan makanan dan air. Kekurangan sumber sudah telah menyebabkan kematian berjuta-juta manusia. Kekurangan sumber dikira oleh ahli ekonomi sebagai bahaya utama yang mengancam kewujudan manusia. Ahli ekonomi juga menganggapnya sebagai satu dilema ekonomi yang disebabkan oleh nafsu manusia yang tidak terbatas berbanding dengan sumber yang terhad dan terbatas. Untuk mengatasi masalah ini, antara cadangan yang dibuat oleh ahli ekonomi ialah manusia hanya perlu memilih sumber yang diperlukan untuk memuaskan nafsu mereka. Konsep konvensional kekurangan sumber adalah bahawa sumber-sumber di dunia adalah terhad berbanding dengan keperluan dan keinginan manusia yang tidak terhad. Sebabnya, menurut ahli ekonomi ialah bahawa alam semula jadi tidak menyediakan sumber yang mencukupi untuk memenuhi keperluan dan keinginan rakyat yang tidak berkesudahan. Pendekatan Islam seperti yang diwakili oleh al-Quran dan As-Sunnah terhadap isu kekurangan pada dasarnya berbeza daripada pandangan konvensional ahli ekonomi. Karya ini mencadangkan dan menjelaskan bahawa masalah ini bukan dalam alam semula jadi yang Allah telah menundukkan kepada manusia,

tetapi ia adalah dalam etika dan tingkah laku rakyat dan cara penggunaan sumber asli, yang akhirnya merosakkan dan mencemarkan sumber yang ada.

Kata Kunci: Islam, Kekurangan Sumber, Ekonomi Moden, Sumber Alam Sekitar, Alam Semula Jadi.

المقدمة

إنّ دراسة الاقتصاد دراسة إسلاميّة عميقة لمن الأهميّة بمكان لإبراز هذا الجانب المشرق في شريعة الله الخالدة نظراً لتجاهله أحقابا طويلة وإن بدأت الإنسانية تفيء إليه جماعات وأفراداً. وسبب ذلك ما جربته المجتمعات البشرية من نظم مالية، ومذاهب اقتصادية شتى، ثبت فشلها الواحد تلو الآخر، بل جلبت لها الشّقاء بعد الشّقاء، وركوداً بعد ركود، وتعالج مشكلة فتحل محلها مشكلة أعضل منها، فانتشر الداء وأعضل الدواء. ومما يزيد من أهمية دراسة الاقتصاد من وجهة إسلاميّة أهمية الاقتصاد في حياة المجتمعات فإنه يمثّل عصب الحياة للوجود الإنساني وبه قيام المجتمعات وانهيارها، فرفاهيّة المجتمع وعدمها منوطة بالاقتصاد نموا وازدهارا أو فشلا وانحطاطا.

ولذا نجد أن العديد من علماء المسلمين المتخصصين قد أولوا أهمية كبيرة لدراسة النظام الاقتصادي الليبرالي الرأسمالي باعتباره النموذج الأكثر تطوراً وتقدماً وصموداً إذا ما تم مقارنته بغيره من النظم الأخرى مثل النظام الشيوعي. والقصد من ذلك عرض هذه الأنظمة الاقتصادية على الشريعة الإسلامية ومبادئها الخالدة من أجل النظر في مدى ملاءمته وتوافقه معها أو لتقديم بدائل إسلامية بإمكانها تلبية متطلبات الحياة المدنية المعاصرة دون أن يكون هناك أيّ مخالفة للشريعة الإسلاميّة. ولا يعني ذلك إلغاء النظام الاقتصادي نهائياً، بل دراسته دراسة نقدية بناءة فيصحح ما فيه من خلل، وينبذ ما يتعارض مع الشريعة ويؤخذ ما فيه من إيجابيات ومحاسن.

ومن ثمّ، أردت أن أسهم مع الآخرين في دراسة إحدى المشكلات التي تواجه العالم اليوم في نظر علماء الاقتصاد وأعني بذلك مسألة ندرة الموارد الطبيعية دراسة من

وجهة نظر إسلاميّة. فلا شكّ أن الفقر والإملاق من المشكلات الرئيسة التي يواجهها العالم اليوم، ومن أسبابها ندرة الموارد الاقتصادية الشديدة ومن أهمها ندرة الغذاء والماء. فندرة الموارد وقلتها كانت ذات أثر مباشر في قتل الملايين، لاسيما في القارة الإفريقية. والنُدرة عندما ترد في السياق الاقتصادي أو في كتبهم فيعنون بها قلة الموارد الاقتصادية وندرتها. وعليه، فإنّ ندرة الموارد تعدّ — خصوصا عند الاقتصاديين – الخطر الأساس الذي يهدد الوجود البشري في هذا العصر. فهذه الندرة تعدّ عند الاقتصاديين معضلة اقتصادية ناتجة عن رغبات الإنسان غير المتناهية مقابل موارد محدودة متناهية، مما يقتضي التعامل معها بحذر، وإيجاد سياسة اقتصادية من شأنها أن تعمل على توزيع الموارد النادرة توزيعا يلبي حاجات الإنسان ورغباته، ويلائم ندرة الموارد وقلتها. ومن الأمور التي يقترحها الاقتصاديون أن الإنسان ينبغي أن يختار بعضا من الموارد الضرورية والحاجية لمعيشته لتلبية رغباته، ولا يسعى وراء الحصول على الموارد.

والحاصل أنّ مفهوم الندرة من منظور الاقتصاد التقليدي يعني موارد محدودة في العالم مقابل حاجات ورغبات غير محدوة، فضلا عن الزعم بأنّ الإنسان متّصِف بالجشع والطمع ودائما له رغبات متجددة، وحاجات لا تتوقف عند عدد معيّن. وسبب ذلك عند الاقتصاديين أن الطبيعة لا توفر موارد كافية لتلبية حاجات الناس ورغباتهم غير المتناهية. ولعل هذا الأمر قد وردت الإشارة إليه في قول الرسول ﷺ:"**لو كان لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لابْتغَى وادِيًا ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا التُّرابُ، ويتوبُ اللهُ على مَن تابَ**"[1]، ففيه إخبار نبوي على الطبع الغالب على بني

[1] الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، ما يتقى من فتنة المال.، وسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لا بتغى ثالث. انظر: البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: **الصحيح**، ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي (القاهرة: دارالحديث، 1433 هـ/ 2011 م)، ص 1542/ النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجّاج: **الصحيح** (القاهرة: دار الحديث، 1422 هـ/ 2001 م)، ص 856.

آدم وهو الحرص على الدنيا والرغبة فيها. فالحاصل أن العالم لا يملك موارد اقتصادية تكفي لسدّ متطلبات الناس جميعاً. فهذا ما يمثّل نظرة الاقتصاديين لمسألة ندرة الموارد وتكييفها من الناحية الاقتصادية. فيلاحظ أنّ "كل مجتمع يمتلك موارد محدودة جدا أو نادرة وذلك إذا ما تمّ مقارنتها بحاجات أفراده التي لا نهاية لها، وذلك في أيّ مجتمع حتى في المجتمعات الغنية اقتصاديا"[2]. بينما نظرة الإسلام التي يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لمسألة الندرة نظرة مختلفة تماما عن نظرة الاقتصاد التقليدي لها من حيث مفهومها وأسبابها وطرق معالجة هذه المشكلة الاقتصادية العالمية التي تواجه العالم بأسره. فهذا البحث المتواضع سيناقش مفهوم الندرة من وجهة نظر إسلاميّة مبنية على ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبويّة مدعمة بأقوال العلماء القدامى والمحدَثين على حدّ سواء. والقصد من ذلك إبراز النظرة المتفردة للإسلام فيما يتعلق بمسألة الندرة والبيئة، وآداب وآخلاق التعامل مع البيئة بربط ذلك بمقاصد الشريعة وما فيها من آداب وأخلاق.

تعريف الندرة وإشكاليتها في الاقتصاد الغربي

الندرة **(Scarcity)** في اللغة بمعنى قلة الشيء وأنه عزيز في الوجود وشحيح وصعب المنال، ونسبة الحصول عليه ضئيلة جدا[3]. وهي في عالم الاقتصاد لا تبعد كثيرا عن هذا المعنى اللغوي للكلمة، لكنها تصبح مخصصة بموضوع علم الاقتصاد واهتماماته ومن بينها موارد الاقتصاد والتي من بينها الموارد الطبيعية. فتكون الندرة عند الاقتصاديين بمعنى النقص في كميات الموارد الموجودة في العالم، وهي تختلف من منطقة إلى أخرى. أو بعبارة أخرى فالندرة تعني النقص في الموارد الاقتصادية، ويقصد بالموارد

---

[2] Rohlf, William, 2010, Introduction to Economic Reasons, Pearson, New York, p. 6.

[3] انظر: ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **مقاييس اللغة**، تحقيق أنس محمّد الشامي (القاهرة: دار الحديث، 2008)، ص 437.

الاقتصادية تلك العناصر النافعة للإنسان الموجودة في محيطه؛ بمعنى العناصر التي لها القدرة على إشباع حاجات الإنسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة ويتوقف إنتاج المجتمع في بلد ما غالباً على مقدار الموارد المتوفرة لديه. وهذه النُدرة في الموارد الاقتصادية من شأنها أن تحول بين المجتمع وبين التنمية، بل قد تمثّل أهم عائق للتنمية، لذلك تعدّ الندرة مشكلة من مشكلات التنمية الاقتصادية. فالتنمية الاقتصادية ونجاحها يتوقف على مقدار ما ينتجه بلد ما من بضاعة على ما لديها من الموارد الطبيعية، وعلى المؤهلات المتوفرة لاستغلال تلك الموارد. وتستلزم التنمية موارد وطاقاتٍ تعبَّؤ لإقامة الاستثمارات التي من خلالها تتحقق عملية التنمية ولا جدال في تنوع تلك الموارد إلى موارد مالية وموارد أو طاقات إنسانية. وعلى ذلك فإن الثروة الطبيعية التي توجد في محيط الإنسان تشمل الأراضي الزراعية، والصالحة للزراعة والرعي، والغابات، والثروة المائية، والثروة المعدنية.

فصفوة القول أنّ مفهوم الندرة من منظور اقتصادي غربي يعني موارد محدودة في العالم، وثروة طبيعية قليلة مقابل حاجات ورغبات غير محدوة، فضلا عن الزعم بأنّ الإنسان متّصِف بالجشع والطمع ودائما له رغبات متجددة، وحاجات لا تتوقف عند عدد معيّن. ولذلك يذكر في الدراسات الاقتصادية أنّ "المشكلة الاقتصادية الأساس التي تواجه الأفراد والمجتمعات على حدّ سواء هي في الحقيقة تتمثل في أنّ رغباتنا تتجاوز قدراتنا على تلبية الرغبات كلّها"[4]. وسبب ذلك عند الاقتصاديين أن الطبيعة لا توفر موارد كافية لتلبية حاجات الناس ورغباتهم غير المتناهية. فالحاصل أن العالم لا يملك موارد اقتصادية تكفي لسدّ متطلبات الناس جميعاً. فهذا ما يمثّل نظرة الاقتصاديين لمسألة ندرة الموارد وتكييفها من الناحية الاقتصادية.

[4] Rohlf, William, 2010, *Introduction to Economic Reasons*, p. 4.

فالحاصل أن العالم لا يملك موارد اقتصادية تكفي لسدّ متطلبات الناس جميعاً، وأن السبب في ذلك لديهم شحّ الطبيعة وقلة مواردها التي لا تتناسب مع عدد البشر في العالم. فهذا ما يمثّل نظرة الاقتصاديين لمسألة ندرة الموارد وتكييفها من الناحية الاقتصادية، ولذلك اعتبر "جين بول سارتر" (Jean-Paul Sartre) أنّ "التطور البشري كلّه – على أقل تقدير إلى حدّ الآن – عبارة عن كفاح مرير ضدّ الندرة الندرة (Scarcity)"[5]. وبناء على هذه المقولة، فإنّ النجاح الاقتصادي في أيّ بلد لا يتحقق إلا إذا تغلّب على معضلة الندرة، أو استطاع أن يتعامل معها بمهارة بحيث لا تكون عقبة أمام التطور الاقتصادي ونموه. ومن ثمّ ندرك أهمية الندرة وخطورتها على الاقتصاد العالمي، بل إنّها تعدّ عند الاقتصاديين معضلة اقتصادية ناتجة عن رغبات الإنسان غير المتناهية والمتزايدة يوما بعد يوم مقابل موارد محدودة متناهية وغير نامية، مما يقتضي التعامل معها بحذر شديد، والعمل على إيجاد نظم وسياسة اقتصادية من شأنها أن تعمل على توزيع الموارد النادرة توزيعا يلبي حاجات الإنسان ورغباته، ويلائم في الوقت نفسه ندرة الموارد وقلتها. ومن الأمور التي يقترحها علماء الاقتصاد والذين يهتمون بمشكلة ندرة الموارد في العالم أن الإنسان ينبغي أن يختار بعضا من الموارد الضرورية والحاجية لمعيشته لتلبية رغباته، ولا يسعى وراء الحصول على الموارد كلّها، فيقدم الأهم فالأهم بين رغباته المعتددة والمتنوعة. فهذا بصورة مختصرة ما يمكن قوله بالنسبة لمعنى الندرة عند علماء الاقتصاد، وما الأمر الذي جعلها مشكلة اقتصادية يصعب مواجهتها والحدّ منها أو تخفيفها بدعوى ندرة الموارد الطبيعية، وأنهم لا يمكلون حلا للزيادة في الموارد الطبيعية وغن كان تنميتها ممكنا.

[5] Xenos, Nicholas, 1989. *Scarcity and Modernity*, Routledge, London and New York, p. 2.

دعوى ندرة الموارد في الفكر الاقتصادي الغربي

الندرة (Scarcity) في اللغة بمعنى قلة الشيء وأنه عزيز في الوجود وشحيح كما سبق وأن بيّنت ذلك، وهي في عالم الاقتصاد لا تبعد كثيرا عن هذا المعنى اللغوي للكلمة، لكنها تصبح مخصصة بموضوع علم الاقتصاد وهو ذلك الفرع من العلوم الاجتماعية الذي يهتم اهتمام كثيراً بالاستخدامات المتعددة للموارد الاقتصادية لإنتاج السّلع وتوزيعها للاستهلاك في الحاضر والمستقبل بين أفراد المجتمع فتكون الندرة والقلة حينها في الموارد الاقتصادية وشحّها المتصف بالتفاوت شدة وضعفاً من بلد إلى آخر. وتنشأ المشكلة الاقتصادية نتيجة تعدد الحاجات الإنسانية وتزايدها بصورة مستمرة في ظل محدودية (ندرة) الموارد الاقتصادية المتاحة والتي تستخدم لإشباع تلك الحاجات. وتتصف المشكلة الاقتصادية بالعمومية حيث تواجهها كل المجتمعات الإنسانية بغضّ النظر عن طبيعة النظام الاقتصادي ودرجة التقدم الاقتصادي، غير أن حدتها قوة وضعفاً تختلف من دولة إلى أخرى. بل إن مشكلة الندرة قد اهتم بها أيضا علماء الاجتماع نظراً لما بين الاقتصاد والدراسات الاجتماعية من علاقة قوية يكون فيها تأثر وتأثير ايضا. ولذلك، فإنّ كتب علم الاجتماع يبحثون أيضا مشكلة الندرة ويقترحون لها حلولا من ناحية اجتماعية مثل التضامن والتعاون للتخفيف من حدةّ الندرة وتقليل مضارها على أفراد المجتمع، وتحسين مستوى حياة الأفراد، لاسيما الفقراء منهم[6].

وبناء على ما يراه علماء الاقتصاد أنّ كافة المجتمعات الإنسانيّة تواجه مشكلة اقتصادية تتمثل في ندرة الموارد لديها وقلتها، بينما تتعدد حاجات الناس وتتزايد بصفة مستمرة وتبدو خطورة هذه المشكلة عندما نعرف أن هذه الموارد، حتى في حالة زيادتها تنمو بمعدل يقل كثيراً عن معدل زيادة السكان وحاجاتهم. وهذه الحقيقة

[6] See: Turner,Bryan and Chris Rojek, 2001, *society and culture: Principles of Scarcity and Solidarity*, Sage Publications, Canada, pp.68-95.

معروفة منذ القدم، فقد نبه إليها (**مالتس**) منذ القرن الثامن عشر حيث قدر ما معناه أنه في الوقت الذي تتخذ فيه الزيادة في السكان شكل المتوالية الهندسية، فإن الزيادة في الموارد تتخذ شكل المتوالية العددية. وعليه، فإذا لم تقم هذه المجتمعات بالتصدي لمشكلة ندرة مواردها وقصورها عن تلبية حاجاتها فقد يأتي وقت تتدهور فيه القدرة الإنتاجية لبعض هذه الموارد. بل وقد يكف بعضها عن العطاء، ولذلك لا مفر أمام هذه الدول من بذل قصارى جهدها في محاولة البحث عن موارد جديدة تستطيع أن تسهم في الارتفاع بمستويات اشباعها أو على الأقل تحافظ عليها. ليس هذا فحسب، وإنما يتعين عليها اولاً وقبل كل شيء أن تحاول استخدام المتاح لديها من الموارد بأكثر الطرق كفاءة من الناحية الاقتصادية بمعنى وصولها إلى التخصيص الأمثل لمواردها يعني تخصيص الموارد، عموماً، تلك الطريقة التي يتم بها توزيعها على استخداماتها البديلة المختلفة بحيث يتحقق في النهاية قدر معين من الإنتاج. فهذا ما يدعيه علماء الاقتصاد التقليدي بالنسبة لمشكلة الندرة واتهام للطبيعة أنها شحيحة، ولا تدّر علينا بما فيها من خيرات متمثلة في الموارد الطبيعية التي فيها. ولكن عندما ننظر للمجتمعات الغربية وما تتحمله من نفقات باهضة على البحث على إمكانية وجود حياة في كوكب آخر، وما تسّخر له من طاقات من اجل اكتشاف كوكب ما أو الصعود إلى القمر وما في معناها. فلا أظنّ أن دعوى ندرة الموارد الطبيعية، وشح الطبيعة الأم كلام مستقيم، بل هناك استتراف للطبيعة وخيرات، وسوء إدارة لمواردها، وإنفاق لها في غير موضعها، وتبديد وتبذير، وفي الفقرات الآتية بيان لذلك.

الندرة في نظر الشريعة

القول بالندرة وأن الطبيعة شحيحة، وأن الكون لا يمدنا بالموارد الطبيعية التي نحتاجها كلام يناقض العقيدة أو اتهام للذات الإلهية بالتقصير نحو بني آدم أو يؤدي إلى القول بأنّ الله خلق الخلق وتخلى عنه أو أهمله. والشواهد على ذلك كثيرة جداً أكتفي

بأهمها أو ما يدل دلالة صريحة على ما ذكرته. فعندما نرجع إلى القرآن الكريم والآيات المتعلقة بالخلق، وتكوين الكون سنجد أنّ الله ﷻ قد جعل الأرض منذ خلقها صالحة للحياة كما قال تعالى:﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ {10} وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ {11}**﴾ (سورة الأعراف). وفي آية أخرى قال تعالى:﴿**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ {19} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ {20} وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ {21} وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ {22}**﴾ (سورة الحجر). قال الإمام القرطبي:"أي جعلناها لكم قرارا ومهادا، وهيأنا لكم فيها أسباب المعيشة. والمعايش مع معيشة، أي ما يتعيش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة. يقال: عاش يعيش عيشا ومعاشا ومعيشا ومعيشة وعيشة"[7].

إذن، فالكون قد هيأه الله للإنسان ليكون صالحا للحياة وزوده بما يقتاتونه فقال تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ {8} قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ {9} وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ {10} ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ {11}**﴾ (فصّلت). "قال السدي: أنبت فيها شجرها. "وقدر فيها **أقواتها**" قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم. وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يوم الثلاثاء والأربعاء. وقال عكرمة والضحاك:

---

[7] القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1993)، مج 4، ص 265.

معنى "قدر فيها **أقواتها**" أي أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد"[8].

فإذا كان الأمر كذلك، فالمشكلة ليست في الطبيعة كما سيأتي لاحقا لتسخير الله ﷻ لها للناس جميعا، فالمشكلة في تصرفات الناس في الموارد الطبيعية وطريقتهم في الانتفاع بها بين إدخال الضرر والفساد عليها والتبذير والإسراف في الانتفاع بها. فقال تعالى:﴿**وَلاَ تُفْسِدُواْفِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ {56} وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ {57}**﴾ (الأعراف). وقال تعالى في السورة نفسها:﴿**وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾{الأعراف:85}. فقد نهى الله ﷻ عن كل فساد في الأرض يستوي في ذلك قليله وكثيره بعد صلاح قل أو كثر، وهذا على العموم لأنّ النكرة في سياق النفي تعمّ. فالأرض جعلها الله ﷻ"على نظام صالح بما تحتوي عليه، وبخاصة الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات التي جعلها الله على الأرض ، وخلق له ما في الأرض ، وعزّز ذلك النّظام بقوانين وضعها الله على ألْسِنَةِ المرسلين والصّالحين والحكماء من عباده، الذين أيّدهم بالوحي والخطاب الإلهي ، أو بالإلهام والتّوفيق والحكمة، فعلموا النّاس كيف يستعملون ما في الأرض على نظام يحصل به الانتفاع بنفع النّافع وإزالة ما في بعض النّافع من الضرّ وتجنّب ضرّ الضار، فذلك النّظامُ الأصلي، والقانُونُ المعزّزُ له،

[8] المصدر نفسه، مج 9، ص 243.

كلاهما إصلاح في الأرض، لأنّ الأوّل إيجاد الشّيء صالحاً، والثّاني جعل الضّار صالحاً بالتّهذيب أو بالإزالة"[9].

ولعلّ من أكبر مظاهر الفساد في الأرض تبذير الموارد الطبيعية، وتبديد البيئة في أمور تافهة، ولذلك ورد النهي في شرعنا الحنيف عن الإسراف والتبذير فقال تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ {141} وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {142}**﴾(الأنعام). وقال تعالى:﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾{الأعراف:31}. فواضح من هاتين الآيتين أنّ الله أباح الاستمتاع بما سخره لنا في الطبيعة، ولكن هذا الانتفاع لا يبلغ حدّ الإسراف، فإذا بلغ حدّ الإسراف قد خرج من الإذن والإباحة إلى النهي والتحريم. ولعل في الحكمة في ذلك أن الإسراف في موارد الطبيعة يؤدي إلى استنـــزافها وأن لا يبقي الأول لمن يأتي بعده شيئا، فلذلك الانتفاع بالموارد الطبيعية مع توسط بين إسراف وتقتير –وهي صفة من صفات عباد الرحمن– يجعل الفرصة سانحة للجميع لكي يستفيدوا منها. يقول العلامة ابن عاشور في هذا الصدد:"فوجه عدم محبّة الله إيّاهم أنّ الإفراط في تناول اللّذّات والطّيّبات، والإكثار من بذل المال في تحصيلها، يفضي غالباً إلى استتراف الأموال والشّره إلى الاستكثار منها، فإذا ضاقت على المسرف أمواله تطلب تحصيل المال من وجوه فاسدة، ليخمد بذلك نهمته إلى اللّذات، فيكون ذلك دأبه، فربَّما ضاق عليه ماله، فشقّ عليه الإقلاع عن معتاده،

[9] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير** (تـــونس: دار سحنون للتوزيع والنشر، د.ت)، مج 4، ج 8، ص 174.

فعاش في كرب وضيق، وربَّما تطلّب المال من وجوه غير مشروعة، فوقع فيما يؤاخذ عليه في الدّنيا أو في الآخرة، ثمّ إنّ ذلك قد يعقب عياله خصاصة وضنك معيشة. وينشأ عن ذلك مَلام وتوبيخ وخصومات تفضي إلى ما لا يحمد في اختلال نظام العائلة. فأمَّا كثرة الإنفاق في وجوه البرّ فإنَّها لا توقع في مثل هذا، لأنّ المنفق لا يبلغ فيها مبلغ المنفق لمحبّة لَذّاته، لأنّ داعي الحكمة قابل للتأمّل والتّحديد بخلاف داعي الشّهوة"[10].

وبالإضافة إلى ذلك، أن الله قد جعل هذه الموارد الطبيعية مودعة في الأرض على ظهرها وفي باطنها، فالأرض هي البيئة الوحيدة التي جعلها الله بحكمته وقدرته صالحة للعيش بالنسبة للإنسان كما هو بيّن من قوله "وجعلنا لكم فيها". ولذلك قال تعالى:﴿**قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ {24} قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ {25}**﴾ (الأعراف). قال الإمام الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال الله للذين أهبطهم من سمواته إلى أرضه: {فيها تحيون} يقول: في الأرض تحيون، يقول: تكونون فيها أيام حياتكم، {وفيها تموتون} يقول في الأرض تكون وفاتكم، {ومنها تخرجون} يقول: ومن الأرض يخرجكم ربكم، ويحشركم إليه لبعث القيامة أحياء"[11]. ومعنى ذلك أنّ البحث عن حياة في كوكب آخر غير الكوكب الأرضي عبث من العبث، فالانفاق الكبير على البحث عن الحياة في القمر أو غيرها من الكواكب الأخرى يعتبر من الإفساد في الأرض بل أخطرها مما يؤدي إلى قلة الموارد واستنزاف خيرات الطبيعة وما تثمره من مال، ونفقته في أمور تعد من الناحية الشرعية مرفوضة. فخالق الكون قد اختار لنا الأرض وجعلها صالح للعيش ففيها نحيا وفيها نموت ومنها نبعث، وقدّر فيها أقواتها، فلماذا إذن

---

[10] المرجع سابق، مج 4، ج 8، ص 123.

[11] الطبري، محمد بن جرير: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1999)، مج 5، ص 247.

البحث عن كوكب آخر لم يجعله الله صالحا للعباد، فلو أنفق الناس موارد الطبيعة كلّها وما في الأرض جميعا ومثله معه ليجعلوا كوكبا آخر صالحا للحياة ما استطاعوا لذلك سبيلا لأنّ الخالق لم يشأ ذلك، والله غالب على أمره ولكن أكثر االناس لا يعلمون. إذن فلا بّد من الاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها بدلا من السعي وراء السّراب وإنفاق المال سفها وتبذيرا، وفي الفقرات الآتية بيان لمقصد الشارع في حفظ البيئة وتسخيرها للناس والعلاقة بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها، وأنّ الندرة إن وجدت فأمر عارض يلبث قليلاً ثم يزول.

أهمّية الموارد البيئية وحمايتها في الشريعة الإسلاميّة

إنّ الإنسان يعيش في بيئة تعدّ مهد حياته، ومستقر وجوده من المهد إلى اللحد، وفيها معاشه قبل معاده. ولذا، فليس غريباً أنْ يهتم الإنسان بالبيئة، ويصلح شأنها حتى تستقيم حياته عليها، ويهنأ عيشه. ومن ثمّ، فإننا نجد المجتمعات الإنسانيّة قديماً وحديثاً تهتم بأمر البيئة، وتعمل على حفظها، والمحافظة عليها من أجل استخدامها، والانتفاع بما فيها. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ ارتباط البيئة بالإنسان ارتباطا وثيقا إذ إن تاريخ البيئة يمتد على طول تاريخ الإنسان نفسه، وتاريخ بداية تكوّن المجتمعات الإنسانيّة. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ "**علم البيئة**" قد "نشأ وتطور بسرعة بفعل ما أصبح يستشعره الإنسان من خطر الفناء لما أصاب البيئة التي هي موئل حياته، وشرط جوده من خراب متفاقم، فذهب يبحث الأمر في علم مستقلّ ليركز العناية بأمر هذا الخطر الدّاهم؛ رصداً للظواهر، وبحثاً عن الروابط والعلاقات، واستكافاً للأسباب، واستشرافاً للحلول التي عسى أن تثني مسيسرة الانزلاق إلى الدّمار البيئـــي، فيعود الأمر إلى نصابه من العافيّة البيئيّة منذ عرفها الإنسان في نشأته الأولى، فينجر عليها إذن مهمّة

التعمير في اطمئنان إلى مستقبلها الآمن"[12]. وبناء على ذلك، فإنّ البيئة، وما يحفها من مخاطر، وما يحيط بها من أزمات الأمر الذي جعل من مشكلة البيئة تحدّياً للعالم بأسره، ولا يختص ببلد دون آخر، مما يقتضي أن تعتني الحكومات، والمنظمات فضلاً عن الهيئات العالمـــيّة بعلاجها، والعمل الجادّ لحلّها كما أشار إلى هذا الأمر المهمّ الدكتور عبد الرشيد متين في كتابه "مدخل للعلوم السياسيّة"[13].

وأيّا ماكان الأمر، فإنّ المحافظة على الـــنّفس تعدّ مقصدا عظيماً من مقاصد الشريعة الإسلاميّة، بل هي أولى المقاصد بالتقديم بالنسبة للمصالح الدنيويّة[14]. فلما كان حفظ النفس مقصداً من مقاصد الشريعة الإسلاميّة فقد شرّع الشارع كثيراً من الأحكام التي من شأنها أنْ تُسهم في حماية هذا المقصد إيجادا، وحفظه سلباً من الهلاك والتلف. وبما أن التفصيل في ذلك ليس من غرضنا هنا، بل سأهتم مما له علاقة بحفظ الموارد الطبيعية والبيئية مما يساهم في حفظ النفس. فمقصد الشارع في حفظ الـــنّفس يمتاز بالتكامل والشمول فلا يكتفي بأن توجد النّفس فحسب، بل قصد إلى إيجادها قويّة سليمة. ومن ثـــمّ، فقد تولت الشريعة بنفسها بيان ما يصلح لغذاء الجسم من

---

[12] النجار، عبد المجيد عمر: **قضايا البيئة من منظور إسلامي** (الدوحة (قطر): مركز البحوث والدّراسات، 1419هـ/1999م)، ص 9.

[13] Moten, Abdul Rashid & Syed Serajul Islam. *Introduction to Political Science*. Singapore: Thomson Leaning, 2005, p. 473.

[14] تقسم المقاصد الشرعيّة إلى مقاصد دينيّة وأخرى دنيويّة؛ فالمقاصد الدينيّة ويندرج تحتها مقصد المحافظة على الدين وهو أسّ المقاصد جميعا. وأما المقاصد الدنيوية فيندرج تحتها بقيّة المقاصد الأربعة الأخرى حسب الترتيب المذكور أعلاه، فيكون مقصد حفظ النّفس أول المقاصد الشرعيّة الدنيويّة وأولاها بالرعاية والتقديم بحيث إذا وقع تعارض بين مختلف المصالح فتقدم مصلحة النفس على بيقيّة المصالح، وتقدم مصلحة الدين على الجميع. انظر: الغزالي، أبو حامد محمّد: **المستصفى من علم الأصول**، تحقيق محمد عبد السّلام عبد الشافي (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1993)، ص 265.

أكل وشرب فجعلته حلالا، وأمرت بطلبه[15]، وبالمقابل نهت عن قلّة قليلة أنواع الأكل والشرب، وحرمت طلبها، ومنعت المسلم من الحصول عليها. وإيضاحا لذلك أقول إنّ حفظ النفس لا يتحقق إلا بحماية الكون الذي نعيش فيه، وحفظه من الفساد الهلاك. فلا يمكن أنْ يتحقق حفظ الدين، والأنفس، والنسل، العقل، والمال إلا بحفظ نظام الكون الذي به يتحقق حفظ الحياة، وبذلك يمكن أن تتحقق بقية المصالح تبعا لتحقق حفظ الكون. وبعبارة أخرى، فإنّ حفظ الكون متوفق على حماية البيئة من أن يدخلها أذى أو ضرر حيث إنّ البيئة تعني "كلّ شيء يحيط بالإنسان"[16] على سبيل الإجمال، وإذا فصلنا في ذلك نقول إنّها"الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، يحصل منه على مقوِّمات حياته من غذاء، وكساء، ودواء، ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني الإنسان"[17].

فالبيئة عبارة عن "الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان بما يضمّ من ظاهرات طبيعيّة وبشريّة يتأثّر بها، ويؤثِّر فيها"[18]. وهذه البيئة التي يعيش فيها الإنسان ويتأثر بها ويؤثِّر فيها هي الأرض التي فيها حياته ومعاشه. ومن ثمّ، فقد أشار القرآن الكريم إلى أنّ الله ﷻ هو الذي جعل هذا الكون، وصيّره صالحاً للمعاش كما قال تعالى:﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾(الأعراف:10). وهذا الأمر اقتضى تزويد البيئة التي نعيش فيها بكل عنصر مساعد على الحياة، ويساهم في حفظها. والله سبحانه وتعالى هو الذي تولى ذلك

---

[15] كما قال تعالى:﴿**كُلُوا من الطيِّبات واعملوا صَالِحاً**﴾ (المؤمنون:**51**)، فضلاً عما ورد في حديث الرسول ﷺ أنه قال:"طلب الحلال فريضة على كلّ مسلم" رواه الطبراني في المعجم الأوسط من طرق ضعيفة ولكن معناه صحيح يشهد له القرآن الكريم ومبادئ الإسلام الكليّة.

[16] عبد المقصود، زين الدين: **البيئة والإنسان** (القاهرة: دار عطوة، ط 2، 1981)، ص 11.

[17] رشيد الحمد ومحمد سعيد: **البيئة ومشكلاتها** (الكويت: مكتبة الفلاح، 1986)، ص 29

[18] الفقي، محمّد عبد القادر: **البيـــئة: مشاكلها وقضاياها** (القاهر: مكتبة ابن سينا، 1993)، ص 10.

برحمته وفضله كما في قوله تعالى:﴿**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ**﴾(الحجر:19-20)، فضلا عن قوله تعالى:﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾(لقمان:20). والحاصل أنّ هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى أنّ رحمة الله تبارك وتعالى بالعباد اقتضت تزويد البيئة بما يصلح حياة الإنسان، ويقوم بها خير قيام.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ البيئة، وما أودعه الله سبحانه وتعالى فيها من وسائل الحياة، وسبل العيش المتنوِّعة تعدّ بمثابة آية من آيات الله ﷻ في هذا الكون كما وردت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى:﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾**(البقرة:164).** ثم إنّ الشارع الحكيم نهى عن الفساد، وحرّمه تحريماً باتاً نظراً لما ينتج عن هذا الفساد من تخريب للبيئة، والإضرار بها مما يؤدي إلى ضيق العيش وصعوبته، بل انعدامه أحياناً أخرى. فمن ذلك قوله تعالى:﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾(الروم:41)، "وفساد البر يكون بفقدان منافعه وحدوث مضارّه ، مثل حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ ، وفي مَوتان الحيوان المنتفع به ، وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أرضين أخرى ، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض. وفساد البحر كذلك يظهر في تعطيل منافعه من قلّة الحيتان واللؤلؤ والمرجان فقد كانا من أعظم موارد بلاد العرب وكثرة الزوابع الحائلة

عن الأسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس"[19]. وكذلك قوله تعالى:﴿**وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾(البقرة:60)، وكذلك قوله تعالى:﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾(القصص:77)، وغير ذلك من الآيات القرآنيّة الواردة في الذكر الحكيم بهذا الشأن.

والحاصل من الآيات السّابقة الذكر أنّ للبيئة أهميّة كبرى في تشريعات الإسلام المتنوعة، ومقاصده المتعددة، بل إنّ لها مكانة علـــيّة في المقاصد التي جاءت الشريعة الإسلاميّة لحفظها وحمايتها. وتظهر هذه الأهميّة في كون المقاصد الضرورية التي جاءت الشريعة لحفظها، وأعني بذلك الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال لا يمكن أن يتحقق حفظها إلا بحفظ البيئة أولا وقبل كلّ شيء. فلا يمكن أنْ تحفظ النفس حيّة إلا إذا توفرت أسباب الحياة في البيئة، ولذلك أشرت آنفاً أنّ الله تعالى هو الذي خلق الإنسان، وخلق له ما به تتقّوم الأنفس، وتتيسّر لها الحياة، والتي تتمثّل في الكون وما فيه من معايش. ثم إنّ حفظ البيئة من جهة العدم يتمثّل في تحريم كلّ ما يدخل ضرر عليها بتصرّفات الإنسان وفعله حتى يتم حفظ البيئة من حيث الوجود. ولذا، فإنّ على الإنسان أنّ يستفيد من البيئة طيلة حياته، وينتفع بما فيها انتفاعا فيه رفق. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه يجب عليه أنْ يحافظ عليها، ولا يحتكرها لنفسه، بل يحافظ عليها، ويقوم بحمايتها لمن يأتي بعده من وجهة نظر إسلاميّة. وبهذا النظر القويم يتحقق حفظ الأنفس الموجودة، ثمّ يتحقق حفظ النسل القادم، بحفظ أنفسهم

[19] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير** – مرجع سابق - مج 3، ج 6، ص 231.

وحياتهم، وذلك متوقّف على تصرّفات الجيل الحالي تجاه البيئة بأنْ يتركها سليمة من الأضرار، خالية من الفساد. وهذا الأمر هو الذي يتماشى مع مقصد الشارع العظيم، وحكمته التي اقتضت أنّ خلق الكون وما فيه، وتسخيره للناس جميعا، وليس لجيل دون آخر، أو لمجموعة من الناس دون آخرين.

ومن ثمّ، فإنّ على الناس جميعا أنْ يتعاونوا على حفظ البيئة وحمايتها لأنفسهم، ولنسلهم أيضاً، فلا ينتفعون بها هم فحسب، ويستهلكون ما فيها استهلاكاً فيه تبذير، بحيث يبقى النسل بدون بيئة صالحة لحياتهم، ومعاشهم. ومن أجل ذلك حرّم الشارع الحكيم التبذير المتمثّل في الاستخدام الزائد عن الحاجة كثيرا مما يدخل في الترف. فالتبذير يجعل صاحبه أخا للشيطان ومن أوصله التبذير إلى الترف فسق، ومن فسق استحق عذاب الله المعجل بالتدمير الكامل كمال قال تعالى:﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**﴾(الإسراء:16). والسبب في ذلك أنّ الإسراف، والتبذير يؤديان إلى استنـــزاف البيئة، واحكتار خيراتها في يد قلّة من الناس الأمر الذي يؤدي إلى تدمير البيئة وتخريبها. وعليه، فقد جاء تحريم الإسراف مقترناً باللبيئة وما تثمره من خيرات لقوام حياة الإنسان فيما يتعلّق بمأكله ومشربه فقال تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾(الأنعام:141). فضلاً عن أنّ الشارع أباح الانتفاع بالبيئة وما فيها، وحرّم الإسراف في هذا الانتفاع، حتى يشترك الناس جميعاً في الانتفاع بها كما في قوله تعالى:﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾(الأعراف:31). ناهيك عن أنّ الشارع الكريم قد اعتبر التبذير من عمل الشيطان، وأنّ القائم بهذا الفعل كأنه أخ للشيطان، وقرين له. القصد من ذلك تنفير الناس من هذا الفعل القبيح، ترهيبهم منه حيث إنّ الإنسان

العاقل السَّويّ لا يرضى أنْ يكون للشيطان قريناً، فقال تعالى:﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً**﴾(الإسراء:26-27).

وأيا ما كان الأمر، فـــ"لقد جاء التوجيه إلى التزام القصد في استهلاك مقدّرات البيئة، وعدم التجاوز إلى الإسراف توجيهاً مؤكّداً يندرج به هذا السّلوك في دائرة الحلال والحرام، ذلك فيما يبد فيما ورد في التشريع الإسلامي من نهي مغلّظ عن الإسراف والتّبذير"[20] كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ومن ثمّ، فليس بمستغربٍ أن تعتبر الشريعة الإسلاميّة الإسراف من باب الإفساد في الأرض بيئتها كما جاء في الحديث عن قوم صالح عليه السّلام الذين أسرفوا في ملاذهم بالاستهلاك المبذّر لمرافق البيئة المتنوعة، فوصفهم الله ﷻ بالإسراف والتبذير، ووصمهم بهذه الصفة المرذولة كما ورد في قوله تعالى:﴿**وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ فاتقوا الله وَأَطِيعُون وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾(الشعراء:149-152). إذن، فنهي الشارع الحكيم عن الإفساد في الأرض، والتبذير في المأكل والمشرب، والإسراف في ذلك كلّه إنما القصد منه أولا وأخيرا حماية البيئة، والحفاظ عليها حفظاً مستمراً ومتواصلاً حتى يتسنى للناس جميعا الانتفاع بالبيئة التي خلقها الله تبارك وتعالى، وما أودعه فيها من معايش كثيرة، وسبلاً للحياة شتى. وهذا الأمر يدّل دلالة واضحة على أنّ التشريع الإسلامي يهتمّ بأمر البيئة اهتماماً بالغاً مما دعاه إلى سنّ أحكام لحماية البيئة، وآداب لحفظها مثل الانتفاع بما في البيئة من معايش، وخيرات، ومنافع دون إسراف أو تبذير.

ولعلّ من أقوى الأدّلة وأبينها على حرص الإسلام على حماية البيئة وحفظها من أنْ تنتقص من أطرافها، وأنْ يصيبها ضرر تعمّ بلواه الناس جميعاً أنّ الرسول ﷺ

---

[20] النجار، عبد المجيد عمر: **قضايا البيئة من منظور إسلامي** – مرجع سابق –، ص 286.

حتى في أمور العبادات لم يكن يسرف في استخدام الماء للوضوء والاغتسال، بل "كان يتوضأ بالمدّ ويغتسل بالصّاع" كما في صحيح مسلم، وقال النووي عند تعرضه لشرح هذا الحديث ما نصّه:" وأجمع العلماء على النهي عن الإسراف في الماء ولو كان على شاطئ البحر، والأظهر أنه مكروه كراهة تنـــزيه، وقال بعض أصحابنا: الإسراف حرام، والله أعلم [21]. فالنهى عن الإسراف في استخدام موارد البيئة التي يحتاجها الناس جميعا، فضلاً عن الحاجة الدائمة المستمرّة لها. إذ يعدّ الماء من أهمّ مقوِّمات الحياة، بل إنّ الحياة متوقّفة على الماء سواء بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات كما وقعت الإشارة إلى هذا المعنى في قوله تعالى:﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُون**﴾(الأنبياء:30). وعليه، فإنّ التشريع الإسلامي ينهى عن الإسراف في استخدام عناصر البيئة ولو كان ذلك في أمور العبادات، وذلك من أجل الحفاظ عليها، وحمايتها من الاستنـــزاف لمواردها وخيراتها الكثيرة. وسبب ذلك أنّ الإسراف في الشيء، وتبذيره يؤدي في نهاية الأمر إلى نفاده، وانعدامه ولو بعد حين. وبناء على ذلك، يمكن أنْ نتبيّن الحكمة التي قصدها الشارع من تحريمه للإسراف والتبذير لاسيما في المأكل والمشرب، إذ إنّ الغالب أن يكون الإسراف فيهما، وعلاقة ذلك كلّه بحماية البيئة وحفظها.

وحسب اطلاّع الباحث المتواضع في هذا الأمر أنّ أكبر سبب، وأعظمه خطرا على البيئة تتمثل في الإسراف والتبذير. والسبب في ذلك أنّ الإسراف في استعمال عناصر البيئة يؤدي إلى استنـــزاف الموارد البيئيّة وتبديدها، وهذا بدوره يؤدي إلى

---

[21] الحديث في صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة، وغسل الرجل والمرأة في إناء واحد في حالة واحدة، وغسل أحدهما بفضل الآخر. انظر: النووي، محيى الدّين يحي بن شرف: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج**، تحقيق خليل مامون شيحا (بيروت: دار المعرفة، ط. 10، 1425 هـ / 2004 م)، ج 3، ص 361.

التلّوث البيئي مثل تلوّث الهواء، والماء، والتربة وغيرها من الأزمات التي تواجهها البيئة يوما بعد يوم. ويزداد هذا الأمر خطورة إذا علمنا أنّ "الإنسان هو الكائن الحيّ الوحيد الذي يستهلك من الموارد البيئيّة ما يفوق حاجته الحقيقيّة في حفظ حياته وتنميتها. فيصيب بذلك تلك الموارد باستنـــزاف يخلّ بالتّوازن المتحقق بين مكوّنات البيئة، مما يسبب اضطراباً في النظام البيئي، وهذا هو الوضع القائم في علاقة الإنسان بالبيئة منذ بعض الزمن، فهو في سبيل تحقيق رغباته من الغذاء، والكساء، والسكن، والترفيه يستهلك من موارد البيئة أكثر بكثير من حاجته الحقيقيّة التي في نطاقها يُحفظ التوازن البيئي، وهو ما أصاب ذلك التوازن بالفعل بالاضطراب، وكان مظهراً من مظاهر المشكلة البيئيّة الراهنة"[22]. ويظهر استنـــزاف الإنسان لموارد البيئة المتنوِّعة بمظاهر متعددة تبعا لتعدد شهواته، ورغباته، ويستفحل الاستنـــزاف في تلك المظاهر بقدر ما يستشري الشره إلى إشباع تلك الشهوات. وهذه المظاهر المتعددة لاستهلاك البيئة، واستنـــزاف خيراتها مهما تعددّت وتنوّعت فيشملها الإسراف والتبذير، وهذا ما يجعل في تحريم الإسراف في كلّ شيء أهميّة كبرى في حفظ البيئة، وحمايتها. وزيادة على ذلك، فإنّ عدم الابتعاد عن الإسراف والتبذير يؤدِّيان إلى السلوك العدواني نحو البيئة والاعتداء عليها لإشباع الرغبات التي لا تتوقف عند حدّ معيّن إذا ما ترك لها العنان دون ضبط أو تقييد. ولقد عبّر أحد علماء الغرب الذين لهم اهتمام بموارد البيئة وهو مشفق ومتوجّس خيفة من تصرفات الإنسان المعاصر بقوله:"السلوك العدواني للحصول على المال أو المكان، تدمير الجمال الطبيعي، المعالم التاريخيّة، تبديد المصادر الطبيعيّة، الأخطار على الصحّة بسبب التكنولوجيا بدون أيّ تفكير. كلّ هذه الخواص

---

[22] النجار، عبد المجيد عمر: **قضايا البيئة من منظور إسلامي** – مرجع سابق –، ص 48 وما بعدها. ولمزيد من التوسّع انظر: قور، آل: **الأرض في الميزان**، ترجمة عواطف عبد العزيز (القاهرة: مطبعة الأهرام، 1994)، ص 115 وما بعدها. ويعدّ هذا الكتاب الأخير من أهمّ الكتب الغربـــيّة التي بينت خطورة الأزمات البيئيّة، وعظم ضررها على الأرض والناس جميعا إذا لم يتم تفاديها.

لمجتمعنا الحاضر تُسهم في تجريد الحياة هذه من صفاتها الإنسانيّة"[23]، وباستمراها، واستفحال أمرها تدمر البيئة، وتخرّب معاييش الناس.

وأيا ماكان الأمر، فإنّ الشارع الحكيم قد نبّه الإنسان إلى أنه هو مصدر الفساد بالبيئة، وإدخال الضرر عليها كما سبق أنْ أشرت إلى ذلك سابقاً مع ذكر لبعض آي الذكر الحكيم المتعلقة بهذا الأمر. وبالإضافة إلى ذلك، فقد ورد في سنّة الرسول ﷺ ما يؤكدّ هذا المعنى، ويزيده قوّة إلى قوّة وهو أنّ الرجل الفاجر الذي لا يخشى الله ﷻ، ولا يخافه يدخل ضررا على العباد والبيئة حتى إنّ موته يعدّ راحة لهم كما ورد في الحديث الشريف:"مستريح ومستراح منه العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله تعالى، والعبد الفاجر تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب". قد ورد هذا الحديث بتفصيل أكثر في مسند الإمام أحمد –رحمه الله–:"عن أبي قتادة قال:كنا مع النبيّ ﷺ جلوسا في مجلس إذ مر بجنازة فقال رسول الله ﷺ مستريح ومستراح منه قال: فقلنا يا رسول الله ما المستريح؟ قال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله قلنا فما المستراح منه؟ قال: العبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب"[24]. وعليه، فإنّ أعمال العبد الفاجر في التصوّر الإسلامي تؤدّي إلى ضرر بالبلاد وما فيها من شجر ودوّاب مما يحدث فيها فساداً حتى إنّ موت مثل هذا العبد يعدّ مصلحة بسبب زوال الضرر على البيئة والعباد معاً. وعليه، فإنّ الشريعة الإسلاميّة قد قصدت إلى حسم مادّة الفساد والضرر على البيئة وهو الإنسان نفسه، كما قال تعالى:﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي**

---

[23] دبو، رينيه: **إنسانيّة الإنسان، نقد علمي للحضارة الماديّة**، تعريب نبيل صبحي الطويل (بيرت: مؤسسة الرسالة، 1399هـ/1979م).

[24] الحديث **متفق عليه** من رواية أبي قتادة، فرواه البخاري في كتاب **الرقاق، باب ما جاء في سكرات الموت**، ومسلم في **الجنائز، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه**. انظر: البخاري: **الصحيح** – مرجع سابق –، ص 1521/ مسلم: **الصحيح** – مرجع سابق –، ص 435.

النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الروم:41). ولذلك حرّمت الشريعة الإسلاميّة على الإنسان الإسراف والتبذير في كلّ شيء، والابتعاد عن الإفساد في الأرض وبيئتها بعد صلاحها للحياة وإصلاحها بما أودعه الله تعالى فيها من معايش مصداقا لقوله تعالى:﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾(الأعراف:10)، فضلاً عن قوله تعالى:﴿**وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ**﴾(الحجر:20). وعليه، فإنّ تحريم الفساد في البيئة أي نوع من الفساد يساهم في حفظ البيئة، وما فيها من معاييش جعلها الله ﷻ رزقاً للعباد تكرما منه وتفضلا على عباده.

والحاصل أنّ الشريعة الإسلاميّة تحرِّم الفساد مطلقاً فيشمل أيّ نوع من الفساد لأنّ ذلك يتنافى مع المقصد الشرعي من خلق البيئة للإنسان، ووجوب حفظها وحمايتها لتتيسر الحياة على الأرض. ناهيك عن أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى أنّ الله ﷻ هو الذي أصلح الأرض؛ فجعلها صالحة للحياة تفضلا منه ورحمة، والفساد أيّ فساد كان لأنه يخلّ بمقصد إصلاحها، ولذلك فقد حرمته الشريعة الإسلاميّة تحريما باتا كما ورد ذلك في قوله تعالى:﴿**وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(الأعراف:56). "فالإفساد في الأرض المنهي عنه في الآية مقصودا به إدخال الخلل على نظامها النافع بقرينة ما ذُكر من الصّلاح الذي في الأصل"[25]. فضلاً عن أنّ هذا النهي عن الفساد في الأرض التي هي موطن البيئة، ومهدها أنها كانت دعوة الرسل أقوامهم إلى الابتعاد عن الإفساد في الأرض كما قال الله عالى على لسان شعيب عليه السّلام:﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـــهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا**

[25] النجار، عبد المجيد عمر: **قضايا البيئة من منظور إسلامي** – مرجع سابق –، ص 74.

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(الأعراف:85). ومن ثمّ، فإنّ تشريعات الإسلام المتنوِّعة كلّها تحرص حرصا شديدا على حماية البيئة وحفظها، بل توجب ذلك على الناس، ويأثم الناس إذا لم يقوموا بهذا الواجب الشرعي نحو البيئة. "وإذا كانت رعاية البيئة والحفاظ عليها وإصلاحها يحقق مقاصد الشريعة، وضروريتها الخمس، فإنّ إفساد البيئة وتلويثها واستنزاف مواردها والإخلال بتوازنها –وهو ما يعبر عنه إسلاميّا بعبارة (الإفساد في الأرض)- يضيّع هذه المقاصد، ويجني على هذه الضروريات كلّها"[26].

الطبيعة بين الخلق والتسخير والاستخلاف

فإذا تقرر أنّ للبيئة أهميّة كبرى في مقاصد التشريع الإسلامي وأحكامه، بل هي المقصد الأسنى الذي تنبني عليه بقيّة المقاصد فلا دين، ولا حياة، ولا نسل، ولا عقل، ولا مال إذا لم تحفظ البيئة. وبناء على ذلك، فإنّ الشريعة الإسلاميّة تقرر أنه من الواجب على الناس جميعاً أنْ يتعاونوا على حماية البيئة، وحفظها من كلّ ضرر وفساد ليتسنى لهم جميعا الحياة السّعيدة على هذا الكون. ولعلّ من أهمِّ الأمور التي تزيد البيئة أهميّة في التشريع الإسلامي، ورفعة مكانة، وسموّها أنّ البيئة في التصوّر الإسلامي هي صنع الله تعالى وخلقه، وأنه تمّ إصلاحها كاملة، وهذا الصنع والخلق تــمّ تسخيره لبني آدم جميعا. وإنّ هذا التصوّر الإسلامي للبيئة له أثر كبير في حماية البيئة، ومساهمة عظيمة في حفظها، ولكن قبل بيان ذلك، وتقريره تجدر الإشارة إلى هذا التسخير، والخلق للبيئة استناداً إلى ما ورد في الذكر الحكيم.

وبناء على ذلك، فقد وردت آيات كثيرة في مواضع متفرقة في شأن البيئة، ومكوّناتها، ولاسيما فيما يتعلّق بوجودها، وقابلــيّة الانتفاع بها والمتمثّل في عمليّة التسخير الرباني لها. فأما بالنسبة لأصل البيئة ووجودها فقد حسم القرآن الكريم هذا

---

[26] القرضاوي، يوسف: **رعاية البيئة في شريعة الإسلام** (القاهرة: دار الشروق، 2001)، ص 52.

الأمر، وذلك بتكرير الإشارة إلى أنّ هذا الكون وما فيه من معايش، وعناصر الحياة التي توفرت في البيئة إنما هو خلق الله ﷻ كما في قوله تعالى:﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾(الأعراف:54)، فضلاً عن ذلك قوله الحقّ تبارك وتعالى:﴿**اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ**﴾(إبراهيم:32)، وغير ذلك من الآيات الأخرى التي تؤكد المعنى نفسه. وبالإضافة إلى التأكيد على أنّ البيئة خلق الله[27]، فإنّ هناك آيات أخرى تشير إلى أنّ هذه البيئة التي من صنع الله وخلقه أنّ الله تعالى بفضله ورحمته قد سخّرها للإنسان كما في قوله تعالى:﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾(لقمان:20)، فضلاً عن قوله تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾(النحل:14)، زد على ذلك قوله تعالى:﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾(الحـــجّ:65).

والحاصل أنّ هناك علاقة بين خلق البيئة وتسخيرها في التصوّر الإسلامي من حيث إنّ الله تعالى هو الخالق للبيئة، وهو المسخّر لها. فإذا تقرر ذلك، فإنّ من الأهميّة بمكان أنْ نبيِّن فائدة التسخير في حماية البيئة حفظها من الدّمار والخراب. وعليه،

---

[27] راجع: المصري، رفيق يونس: **الإعجاز الاقتصادي للقرآن الكريم** (دمشق: دار القلم، 2005)، ص 26 وما بعدها.

فنقول إنّ خلق البيئة من قبل الله ﷻ لا يجعل الإنسان مستطيعا من الاستفادة منها، بل قد يكون عاجزا في أكثر الأحيان عن الانتفاع بها، والاستفادة منها. والسبب في ذلك راجع إلى أنّ الله هو الذي خلقنا، وكانت إحدى الغايات الكبرى بعد عبادته تتمثّل في عمارة الأرض كما وردت الإشارة اللطيفة إلى ذلك في قوله تعالى:﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**﴾(هود:61). فلّما كانت غاية الحياة الإنسانيّة السكنى، والتعمير في الأرض، وتعميرها بما يحقق ترقيّة الإنسان، وتنميّة حياته، فإنّ هذه الغاية لا يمكن أنْ تتحقق بدون تسخير البيئة، وتيسير الانتفاع بها.

ومن ثمّ، فقد اقتضت حكمة الله تعالى العليم الخبير بأنْ سخّر البيئة التي خلقها للناس جميعاً حتى يتسنى للإنسان الانتفاع بالبيئة، والارتفاق بما فيها في حياته ومعاشه. ومعنى "تسخير البيئة للإنسان أنّ هذه البيئة مهيّـــأة في أصل طبيعتها من قِبل صانعها تهيئة مقدّرة بحيث تستجيب للإنسان فيما خُصّ به من مهمّة في الحياة"[28]، والتي تتمثّل في عمارة الأرض. وقد سبقت الإشارة إلى الآيات القرآنيّة الدّالة على تسخير الكون وما فيه للإنسان معاشه، ويقترب من معنى التسخير مصطلح التذليل الذي يحمل معنى التيسير، وإزالة الصعوبة عن الشيء. وقد وردت الإشارة إلى معنى تذليل البيئة بتذليل الأرض في قول الله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾(الملك:15). وأضاف الله تبارك وتعالى مع تذليل الأرض تذليل الحيوان ليتم الانتفاع التام بالبيئة وما فيها كما قال تعالى:﴿**وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ**﴾(الملك:15). ومن ثمّ، فإن الله تعالى جعل تذليل الأنعام وتسخيرها للعباد نعمة كبيرة حيث أمر الشارع بأن نشكر الله ونحمده على ذلك كما ورد في قوله تعالى:﴿**وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا**

---

[28] النجار، عبد المجيد عمر: **قضايا البيئة من منظور إسلامي** – مرجع سابق –، ص 179.

تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾(الزخرف:12-13). والحاصل أنّ رحمة الله اقتضت أنْ يخلق للإنسان بيئة ملائمة لحياته ومناسبة لمعاشه، وبفضله سخّرها له وذللها حتى يتمكن من الانتفاع بها انتفاعا ميسّراً وسهلاً. وهذا الأمر يوضّح لنا العلاقة بين خلق البيئة، وتسخيرها، وتذليلها، والأمر بعمارة الأرض، إذ إنّ خلق البيئة من قبل الله تعالى لا يكفي للانتفاع بالبيئة وما فيها من موارد نظرا لصعوبة ذلك، وتجاوزه لقدرة الإنسان واستطاعته. ونظراً لذلك سخّر الله ﷻ هذا الخلق (البيئة) ويسّره لمنفعة البشر ومصلحتهم، وبذلك حصل المقصود من خلق البيئة لتكون موطناً للناس وفيها معاييشهم، وعليها تقضى مصالحهم.

فقد تقرر مما سبق أنّ الشريعة الإسلاميّة، وتعاليمها الربانـــيّة توجه الإنسان توجيها للتعامل مع البيئة تعاملا رفيقاً مما يجعله يستفيد منها ومن مواردها، ويحقق صيانتها، وحمايتها من التلف والدّمار. وبالإضافة إلى ما قررناه سلفاً، فإنّ من الأمور المهمّة التي تبرز لنا أهميّة البيئة في التصور الإسلامي، وتظهر مدى مراعاة الشارع لها، والعمل على حفظها، وحمايتها أنّ الله اختار آدم وذريته بوصفهم خلفاء في هذه الأرض. وهذه الحقيقة ورد بذكرها جمل من آي الذكر الحكيم منها قوله تعالى:﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾](البقرة:30). وعليه، فإنّ الله ﷻ قد جعل ذرية آدم عليه السلام خلفاء في الأرض كما قال الحقّ تبارك تعالى:﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾(النمل:62). ثم إنّ هذا الاستخلاف لبني آدم في الأرض قد حمّلهم مسؤوليّة كبرى، ووظيفة عظمى تتمثّل في عمارة الأرض كما ورد ذلك في قوله تعالى:﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**﴾(هود:61).

وزيادة على ذلك، فإنّ هذا الاستخلاف الذي تفضل به الله ﷻ سنحاسب عليه جماعات وأفرادا كما وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى:﴿**قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾(الأعراف:129)، وقوله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً**﴾(فاطر:39)، فضلا عن قوله تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(الأنعام: 165)، وبالإضافة إلى قوله تعالى:﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾(يونس:14). وبناء على أهمّية هذا الاستخلاف، وخطورة أمره، فقد جاءت الرسالات السّماويّة لتذكير الناس بهذه الوظيفة كما وردت الإشارة إلى ذلك في الآية السّابقة، بل إنّ الأنبياء – عليهم السّلام – قد جعلهم الله تعالى خلفاء في الأرض ليكونوا قدوة خير، وأسوةً حسنة للناس جميعا كما في قوله تعالى:﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾(ص:26). ناهيك عن الاستخلاف الجماعي حيث إنّ سنة الله تعالى اقتضت أنْ يجعل هذا النوع من الاستخلاف متداول بين الأمم والأقوام حيث يخلف بعضهم بعضاً كما ورد في قوله تعالى:﴿**وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾(الأعراف:74). ناهيك عن قوله تعالى:﴿**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ**

جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(الأعراف:69).

وفضلاً عن ذلك، فإنّ المولى ﷻ قد جعل أهل العمل الصالح لهم الأولوية، والأسبقيّة في الاستخلاف، وأنهم أحقّ بها من غيرهم بسبب الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى:﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾(النور:55)، ناهيك عن قوله تعالى:﴿**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**﴾(يونس:73). والحاصل أنّ الإنسان هو خليفة الله تبارك وتعالى في الأرض، وهذا الاستخلاف ليس عاريا عن أيّ مسؤوليّة أو وظيفة تجعل من الاستخلاف تكليفاً للإنسان، بل إنه صار مكلّفا بسبب هذا الاستخلاف، وهذا التكليف صيّر الإنسان مسؤولا، بل هو المخلوق الوحيد المكلّف في هذا الكون.

ومن ثمّ، فإنّ اختيار الإنسان ليكون خليفة يترتب عليها أنه مكلّف ومسؤول على ما يحدث في هذا الكون، وما يجري فيه من أحداث متتابعة. زد على ذلك أنّ علاقة هذا التكليف بحفظ البيئة، وحمايتها في التصوّر الإسلامي يتمثّل في العلاقة الوظيفيّة بين استخلاف الإنسان، وتسخير البيئة. فـ"البيئة هي المسرح الذي يقوم عليه الإنسان بأداء وظيفته في الحياة، فتكون له إذن علاقة وظيفيّة بالإضافة إلى علاقته الوجوديّة بها، فأداء الإنسان لوظيفته في الحياة يقتضي أنْ يكون للبيئة دور معيّن فيه من جهة ما هي مسرح لذلك الأداء، كما يقتضي أنْ يكون للإنسان تصرّف بيئيّ وفق ذلك الدّور المعيّن. ومن ثمّ تنشأ العلاقة الوظيفيّة بين الطرفين"[29]. وتعتبر هذه

[29] النجار، عبد المجيد عمر: **قضايا البيئة من منظور إسلامي** – مرجع سابق –، ص 176.

العلاقة الوظيفيّة بين استخلاف الإنسان، وتسخير البيئة عنصراً مهمّا من عناصر التصوّر الإسلامي لعلاقة الإنسان بالبيئة.

وبيانا لذلك أقول إنّ حكمة الله ﷻ اقتضت أنْ يستخلف الإنسان في الأرض، وجعلها وظيفة أساسيّة له في الكون، ومن متطلباتها عمارة الكون، وتعميره. ومن تمام حكمة الله تبارك تعالى، ولطف تدبيره، وعظيم منته أنْ خلق هذا الكون، وما فيه من بيئة، وسخرّها للإنسان حتى يتمكن من القيام بوظيفته أحسن قيام، وأن يتيّسر له ذلك. وزياد في تقرير هذا المعنى وإيضاحه أقول إنّ الإنسان قد حمّله الله تبارك وتعالى مسؤولـــيّة الاستخلاف، فلو لم يسخِّر له البيئة، ويذلل له عناصرها المتنوعة لما استطاع القيام بهذه الوظيفة بوصفه خليفة الله في الأرض، فيكون هذا تكليف بما لا يطاق، وشرع الله يتعالى عن ذلك مصداقاً لقوله تعالى:﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾(البقرة:286)، وقوله تعالى:﴿**لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾(الأعراف:42)، فضلاً عن وقوله تعالى:﴿**وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾(المؤمنون:62). وبناء على أنّ الشريعة الإسلاميّة لا تكلّف الإنسان بما يعجز عنه أو يصيبه عنت في القيام به، ولا شكّ أنّ استخلاف الإنسان، وتكليفه بعمارة الكون اقتضى تسخير البيئة له، وتذليلها لخدمة هذا المقصد الأعظم، والغاية المطلوبة.

وأيا ما كان الأمر، فإنّ تسخير البيئة، وتذليلها للإنسان غرضها تيسير مهمته في الأرض، أن يكون قادراً على أداء وظيفته في التعمير. ومن ثمّ، فإنّ تسخير البيئة وارتباطها بالبيئة ارتباطاً من حيث الوجود والعدم يقتضي من الإنسان أن يحافظ على البيئة، ويحميها، ولا تكون تصرّفاته سبباً لهلاكها وفسادها. ولعلّ هذا الأمر جعل الشارع الحكيم يعلّق ظهور الفساد انتشاره في الكون وبيئته بتصرفات الناس أنفسهم كما قال تعالى:﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾(الروم:41). وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ دعوة

الأنبياء عليهم السّلام قد اشتملت على تحريم الفساد في الأرض، دعت الناس للابتعاد عن ذلك كليّة كما في دعوة شعيب عليه السلام وغيره من الأنبياء، حيث يقول الله تعالى:﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾(العنكبوت:36). فضلاً عن قوله تعالى:﴿**وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾(هود:85). وقوله تعالى في قارون الذي بغى في الأرض وأكثر فيها الفساد فقال تعالى:﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾(القصص:77).

ويتقرر مما سبق أنّ أكثر الفساد الذي يكون في الأرض إنما يكون في البيئة بتدميرها، واستنـــزاف خيراتها، وإزالة صلاحها للعيش والحياة. ولذلك حذّر الشارع أيما تحذير من هذا الأمر، واعتبرها من فساد أخلاق الإنسان وتصرّفاته كما وقعت الإشارة إلى هذا المعنى في قوله تعالى:﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ**﴾(البقرة:204-205). فالفساد في الأرض إنما متعلق بالإفساد في البيئة، وتخريبها، وتدمير ما فيها من موارد وخيرات جعلهما الله تبارك تعالى سببا للحياة. وبعبارة أخرى، فإنّ ذلك يعني "**تعطيل لما خلقه الله في هذا العالم لحكمة صلاح الناس**"[30]، وإصلاح معيشتهم في الحياة الدنيا. ونظير هذه الآية الناهية للناس عن إفساد البيئة، وإتلافها إسرافا وتبذيرا قوله تعالى:﴿**وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً**

[30] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير** (تـــونس: الدار التونسيّة للنشر، 1984)، ج 2، ص 270.

قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(البقرة:60)، ناهيك عن قوله تعالى:﴿**وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾(الشعراء:183).

ولعلّ أهم سبب وراء هذا التحذير الرباني من الفساد في الأرض أنّ إدخال الضرر على البيئة أي نوع من الضرر، يجعلها غير صالحة للحياة الأمر الذي يؤدّي إلى قتل الناس. ولقد تقدّم في أول البحث تقرير أنّ حفظ النفس مقصد عظيم من مقاصد الشارع الكريم، ومن أجله شرعت أحكام متعددة من شأنها أن تحفظ النفس وتحميها. فانظر إلى قوله تعالى:﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**﴾(المائدة:32). "فالفساد في الأرض الذي جُعل أحد أسباب قتل النّفس الإنسانيّة بغير حقّ يشمل من بين ما يشمل الفساد الذي يحدثه الإنسان في البيئة فيؤدي إلى هلاك الأنفس، ويكون بذلك من أفسد البيئة فكأنما قتل الناس جميعا، ويتداخل إذن المصير بين الإنسان والبيئة، بحيث يؤدِّي هلاكها إلى هلاكه، ولذلك اعتُبر في الآية الإفساد البيئي عملاً غير أخلاقي، وشدّد عليه النكير"[31]. وإذا أخذنا بعين الاعتبار في المقابل بمفهوم المخالفة عملا أخلاقيا إحياء الأنفس بالمحافظة على البيئة صالحة للحياة، تنميها في سبيل ذلك.

وبناء على ذلك، فقد تقرر أنّ النهي عن الفساد في البيئة إنما هو أمر بالمحافظة عليها وحمايتها من كلّ ضرر في التصّور الإسلامي للبيئة، وكيفيّة حمايتها. والسبب في ذلك عدم الفصل بين صلاح البيئة وحفظها، وصلاح حياة الإنسان فيها، كما أنه لا يمكن الفصل بين إفساد البيئة، التي يترتب عليها فساد حياة الإنسان، انعدامها بانعدام

[31] النجار، عبد المجيد عمر: **قضايا البيئة من منظور إسلامي** – مرجع سابق –، ص 198.

صلاحيّة البيئة للعيش. فإذن، فإنّ التصور الإسلامي للبيئة، وعلاقتها باستخلاف الإنسان في الأرض تتمثل في العلاقة التلازميّة بين وجود الإنسان والبيئة، مما يترتب عليه أنّ انعدام البيئة يؤدي إلى انعدام الإنسان نفسه. وهذا الأمر يدل دلالة واضحة على سمو الشريعة وتعاليمها حيث جعلت حماية البيئة وحفظها مسؤولية الإنسان، بل إنّ القيام بمهمّة الاستخلاف مبني على ما يبذله من جهد متواصل في حماية البيئة، وذلك بالابتعاد عن كلّ ما فيه إفساد لها أو ضرر عليها.

خاتمة

والحاصل أنه لا شكّ أن الفقر والإملاق من المشكلات الرئيسة التي يواجهها العالم اليوم، ومن أسبابها ندرة الموارد الاقتصادية الشديدة ومن أهمها ندرة الغذاء والماء. فندرة الموارد وقلتها كانت ذات أثر مباشر في قتل الملايين، لاسيما في القارة الإفريقية المليئة بالذهب والألماس. والنُدرة عندما ترد في السياق الاقتصادي أو في كتبهم فيعنون بها قلة الموارد الاقتصادية وندرتها. وعليه، فإنّ ندرة الموارد تعدّ – خصوصا عند الاقتصاديين – الخطر الأساس الذي يهدد الوجود البشري في هذا العصر. فهذه الندرة تعدّ عند الاقتصاديين معضلة اقتصادية ناتجة عن رغبات الإنسان غير المتناهية مقابل موارد محدودة متناهية، مما يقتضي التعامل معها بحذر، وإيجاد سياسة اقتصادية من شأنها أن تعمل على توزيع الموارد النادرة توزيعا يلبي حاجات الإنسان ورغباته، ويلائم ندرة الموارد وقلتها. ومن الأمور التي يقترحها الاقتصاديون أن الإنسان ينبغي أن يختار بعضا من الموارد الضرورية والحاجية لمعيشته لتلبية رغباته، ولا يسعى وراء الحصول على الموارد. فمفهوم الندرة من منظور اقتصادي يعني موارد محدودة في العالم مقابل حاجات ورغبات غير محدوة، فضلا عن الزعم بأنّ الإنسان متّصِف بالجشع والطمع ودائما له رغبات متجددة، وحاجات لا تتوقف عند عدد معيّن. وسبب ذلك عند الاقتصاديين أن الطبيعة لا توفر موارد كافية لتلبية حاجات

الناس ورغباتهم الغير متناهية. فالحاصل أن العالم لا يملك موارد اقتصادية تكفي لسدّ متطلبات الناس جميعاً. فهذا ما يمثّل نظرة الاقتصاديين لمسألة ندرة الموارد وتكييفها من الناحية الاقتصادية. بينما نظرة الإسلام التي يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لمسألة الندرة نظرة مختلفة عن نظرة الاقتصاد التقليدي لها من حيث مفهومها وأسبابها وطرق معالجة هذه المشكلة. فهذا البحث المتواضع سيناقش مفهوم الندرة من وجهة نظر إسلاميّة مبنية على ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبويّة مدعمة بأقوال العلماء القدامى والمحدَثين على حدّ سواء. والقصد من ذلك إبراز النظرة المتفردة للإسلام فيما يتعلق بمسألة الندرة، وأخلاقيات التعمال مع البيئة.